وليس من واجبنا اصلا ان نتبنى تحليلات ماركوز واستنتاجاته برمتها ، جملة وتفصيلا .

فمن الواضح على سبيل المثال ان ماركوز عندما يتكلم عن المجتمعات الصناعية المتقدمة فانه يقصد المجتمعات الرأسمالية واللارأسمالية معا. ونحن لا ننكر ان « الاحادية البعد » قد تكون احدى صفات الدول الاشتراكية في واقعها الراهن ، ولكن الايمان عامر في صدورنا بأن هذا المظهر الاحادي البعد عارض ومؤقت ، وبأنه نتيجة الماضي اكثر منه ابن الحاضر ، وبأن المجتمعات الاشتراكية تتقدم الآن نحو « ثنائية البعد » بعد ان تعثرت طويلا في المرحلة الاحادية البعد (الستالينية) ، وذلك بعكس المجتمعات الرأسمالية التي تتقدم باطراد من ثنائية البعد الى أحاديته .

ثم اننا نخالف ماركوز في اعتقاده بأن الطبقة العاملة في البلدان الغربية المتقدمة صناعيا قد اندمجت نهائيا بالمجتمع وأصبحت قوة « ايجابية » . ويخيل الينا أن ماركوز قد تسرع عندما خص بالذكر الحزبين الشيوعيين الفرنسي والايطالي كمثال على صيرورة الاندماج تلك . ولهذا فاننا نشك في صحة الاستنتاج الذي وصل اليه من انه لن يتغير شيء البتة في المجتمعات الغربية اذا ما اصبح جهاز الانتاج فيها خاضعا لرقابة تحتية ، أي لرقابة الطبقة العاملة . فحتى لو اندمجت البروليتاريا نهائيا بالمجتمع القائم ، فانه يخيل الينا ان الرقابة التحتية او العمالية على جهاز الانتاج قابلة ـ قابلة فحسب ـ لان تكون بداية الانقلاب السياسي بالمعنى الذي يعطيه ماركوز لهذا الشعار .

والحق ان تسرع ماركوز في ادانة المجتمعات والاحزاب ذات الطابع « السوفياتي » ناجم ، على ما يخيل الينا ، عن انتماء ماركوز الى « النظرية الصينية » حتى وان لم يصرح بذلك . وهذا الانتماء ـ اللامباشر من الجائز ـ هو الذي يفسر تبني ماركوز لنظرية حصار منبوذي العالم لمترفيه ، تلك النظرية التي تذكرنا الى حد كبير بنظرية لين بياو عن حصار ارياف العالم لمدنه . ولكننا لن نعود الى مناقشة هذا الموضوع هنا ، بعد ان اوفيناه حقه ـ على ما نأمل ـ في كتابنا « النزاع السوفياتي ـ الصيني » .

وتبقى بعد هذا نقطة اخيرة : ما علاقة الفكر الماركوزي بحركات التمرد الطلابية الاخيرة في أوروبا ؟ وهل صحيح ان ماركوز هو الزعيم الروحي لهذه الحركات كما تحاول الصحافة ان تقول ؟

الحق اننا لا ننكر ان هذه الحركات الطلابية تأثرت الى حد ـ كبير او صغير ؟ ـ بـ « تأملات » ماركوز . ولكن لا بد ان نضيف بأن ماركوز لم يتكلم في أي موضع من كتاباته عن الحركة الطلابية ولم يتنبأ بها . كل ما هنالك ان الطلاب والشباب « اكتشفوا » ماركوز ، اكتشفوا صيغة ايديولوجية لما يحسون به من تبرم واستياء واحتجاج . وهذا ان كان يدل على شيء فانما يدل على ان افكار ماركوز قابلة لان تكتسب قوة واقعية بالرغم من صدورها عن « مثقف » و « فيلسوف » تجاوز العقد السابع من العمر .

ومن الممكن ان تكون حركات التمرد الطلابية ـ كما وصفها او اتهمها البعض ـ حركات عفوية وذاتية وفوضوية تقف على هامش النضال المنظم والموضوعي للطبقة العاملة . ولكنها تظل بالرغم من ذلك حركات احتجاج ونقد موجهة ضد مجتمع الاضطهاد القائم . ومن هنا على وجه التحديد تنطرح ضرورة دمجها ـ لا نبذها ـ بالممارسة النقدية الكبرى ، بنفس الدرجة والاهمية التي تنطرح بها ضرورة دمج مستلهماتها الفكرية (الماركوزية) بالنظرية النقدية الكبرى . (*)

جورج طرابيشي

---

* المقدمة العربية التي كتبها المترجم الاستاذ طرابيشي لترجمة كتاب هـ. ماركوز « الانسان ذو البعد الواحد » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب .

كلمات إلى ضوء بعيد

هنا الفاصل
هنا جسر الدموع السود ..
والمقتول والقاتل
هنا تساقط الاوراق
هنا تخبو سواقي النور في الاعماق
هنا لا يقطف العشاق
سوى الحسره
سوى الهمهمة المره
سوى ما تمنح النظره
سوى ما يمنح القاتل :
نداء عبر هذا العالم القاحل

***

اذا ما أورق الليل
مصابيحا بلا عد ...
شريطا من فراشات بلا حد !
ونامت آخر الاصوات
يناديني من البعد
ضياء راعش ناء
فيسري الرأس بالخطوات
ويحكي عالم الصمت :
هنا بيت !..
هنا مملكة الصوت !
هنا أسره ! ..
ويطفى مرة أخرى بقلبي عالم الاموات

***

بعيد أنت يا بيتي
أما من يردم الحفره ..؟
بعيد أنت يا بيتي
أما من يوصل الزهره ؟..

بغداد

سلمان الجبوري